

تاريخ النشر: 2024/04/15

تاريخ القبول: 2024/01/08

تاريخ الاستلام: 2023/09/09



تجليات التجربة الصوفية في روايتي "عائلة من فخار" و"شعلة الماييدة" لمحمد مفلح

✉ عائشة سواعديّة

souadia1987@gmail.com

جامعة محمد خيضر بسكرة / الجزائر

The manifestations of the Sufi experience in the novels "A Family of Pottery" and "The Flame of Mayda" by Muhammad Mufilah

✉ Aicha Souadia

souadia1987@gmail.com

University of Mohamed Khider- Biskra/ Algeria

ملخص البحث

يعد التصوف من أعمق التجارب الدينية والإنسانية التي تنطلق من المادي إلى اللامادي ومن المحسوس إلى غير المحسوس، وتسعى إلى تطهير الروح من حب الدنيا وزينتها إلى الظفر بحب الله والفناء في الذات الإلهية، وإذا كان التصوف هو العزوف عن الدنيا وملذاتها وتخليص الذات البشرية من معاناتها باتحادها مع الذات الإلهية والفناء في عالمها، فإن الروائي كذلك يعزف عن مآسي الواقع القاسي ليفنى بين سطور رواياته، والعلاقة بين الأديب والصوفية تتعدى نقاط التلاقي بينهما والمتمثلة في الاهتمام بالذات الإنسانية، وفي حبهما للحرية والتخلص من قيود الواقع إلى علاقة أقوى منها "علاقة مرجعية". إذ نجد أن التجربة الروائية الحداثيّة قد لجأت إلى التراث الصوفي الذي أصبح يشكل مرجعا ثريا وهاجسا حدثا لدى كثير من الروائيين، ينهلون من نبعه المتدفق، ويلجؤون إليه باعتباره ممارسة إبداعية ومرجعية تراثية خصبة، وسنحاول في هذا البحث الكشف عن التجربة الصوفية في روايتي عائلة من فخار وشعلة المايدة، والطريقة التي استقتا بها من نبع التصوف المتدفق، لما لذلك من أهمية في الكشف عن استراتيجية وقدرة محمد مفلّاح في الانفتاح على التصوف وإدراكه لخباياه وأبعاده ودلالاته.

الكلمات المفتاحية: الرواية، التصوف، تجليات، التجربة الصوفية، محمد مفلّاح.

ABSTRACT:

Abstract:

Sufism is one of the deepest religious and human experiences that proceed from the material to the immaterial and from the tangible to the imperceptible, and seeks to cleanse the soul of the love of the world and adornment to win the love of God and annihilation in the divine, and if Sufism is the reluctance to the world and its pleasures and rid the human self of suffering by its union with the divine self and annihilation in its world, the novelist also refrains from the tragedies of the harsh reality to die between the lines of his novels, and the relationship between the writer and Sufism exceeds the points of convergence between them and represented in self-interest humanity, and in their love of freedom and getting rid of the constraints of reality to a stronger relationship than it "Reference relationship". We find that the novelist experience modernist has resorted to the Sufi heritage, which has become a rich reference and a modern obsession for many novelists, they draw from its flowing spring, and resort to it as a creative practice and a fertile heritage reference, and we will try in this research to reveal the Sufi experience in the novels of a family of pottery and torch of Mayda, and the way they derived from the spring of Sufism flowing, because of the importance of this in revealing the strategy and ability of Muhammad Muflah in openness to Sufism and his awareness of its secrets, dimensions and connotations.

Keywords: novel, mysticism, manifestations, Sufi experience, Muhammad Muflah.

1. مقدمة:

إذا كان التصوف هو العزوف عن الدنيا وملذاتها وتخليص الذات البشرية من معاناتها باتحادها مع الذات الإلهية والفناء في عالمها، فإن الروائي كذلك يعزف عن مآسي الواقع القاسي وهمومه ليفنى بين سطور رواياته ويذوب فيها، فقد « دخل مفهوم التصوف إلى النصوص الروائية على الرغم من الاختلاف الكبير بين التجربتين الصوفية والروائية، إلا أن كليهما تسعى للوصول لحقيقة ما تتصل بالذات الإنسانية، فالتجربة الصوفية تحتوي إحساساً إنسانياً يكشف عن معاناة الذات البشرية المتعطشة إلى الارتواء من ذات المحبوب، بينما التجربة الروائية تحاول رصد حقيقة الذات الإنسانية في الوجود ومساراتها ما بين الواقع والحلم والميول والرغبات، وعليه فكليهما معني بالإنسانية وهمومها.»¹

والأديب مثله مثل الصوفي الذي يواجه المجتمع ويسعى إلى التخلص من قيوده ومن رتابة عالمه الدنيوي بحثاً عن عالم جديد يجد فيه حريته، إذ أن الصوفية: «تدعو إلى السمو والارتفاع بالنفس البشرية فوق تفاهة الحياة اليومية، واهتمامات العالم الدنيوي الذي لا يرى في حياته سوى يومه المحدود بالزمان والمكان، ونفس المهمة يحاولها الأديب (...) فالمعروف أن الوحدة العضوية التي تميز الأعمال الأدبية الناضجة عبارة عن تجسيد موضعي لوحدة الكون التي تتمثل بصفة خاصة في علاقة الحب الصافي والنقي بين الخالق والمخلوق.»²

والعلاقة بين الأديب والصوفية تتعدى نقاط التلاقي بينهما والمتثلة في الاهتمام بالذات الإنسانية، وفي حبهما للحرية والتخلص من قيود الواقع وسلطاته القهرية، إلى علاقة أقوى منها "علاقة مرجعية".

إذ نجد أن التجربة الروائية الحداثية قد لجأت إلى التراث الصوفي الذي أصبح يشكل مرجعاً ثرياً وهاجساً حداثياً لدى كثير من الروائيين، ينهلون من نبعه المتدفق ويستغلون معطياته الفنية، ويلجؤون إليه باعتباره ممارسة إبداعية ومرجعية تراثية خصبة، فإذا كانت «الصوفية على المستوى التاريخي تعتبر ثورة فكرية فإن سيطرتها على النص الأدبي الحديث والمعاصر إبداعياً تجعلها تطبعه بالزعة الحداثية، كما تؤكد عمق تجذره في التراث العربي الإسلامي، فالعبارة الصوفية استناداً إلى هذا تجعل النص الأدبي حداثياً في جذور تواصلية مع الماضي لا انفصالية.»³

والروائي قد وجد في التجريب الصوفي عوالم جديدة، وأفقا متميزاً لإبداعاته السردية التي أخرجها من النمطية التي كانت تغلب عليها، فلم يبق عالم الرواية عالماً مسطحاً بل أصبح: «عالمًا سحرياً يموج بالحركة والألوان، عالماً لا يعترف بالأبعاد والحدود، إنه عالم التخطي والتجاوز والسعي وراء المطلق»⁴. أصبح منفتحاً على القراءات المتعددة الآفاق متحرراً من المعنى الثابت، محملاً بأبعاد وقيم فنية جديدة.

وعليه فإن العلاقة بين الرواية والصوفية ظاهرة جديدة شهدها العصر الحديث، وترتبط قوتها داخل الرواية بشكل كبير على استراتيجية الروائي وإدراكه لخبايا التصوف وأبعاده وإيحاءاته « فقد تقتصر

إعادة الكتابة على ما هو تقني كأن تستثمر الخطاب الصوفي في بناء النص الموازي، أو إدماج قول صوفي في السياق النصي، أو تكثيف الخطاب، والاقتصاد فيه مقابل ثراء المعنى، وقد تتجاوز ذلك إلى طرق التواصل مع الموضوع واللغة، والتوسل بآليات الالتذاذ الصوفي بالوجود وتذوقه، والسفر فيه مع الرهان على الخيال والانفتاح على الوجود⁵، وخلق عالم يكون أكثر كمالات، تستدرك فيه نواقص الواقع التي تدعو إلى التمرد على الآلام والهموم الفردية والسمو بالروح للبحث عن ما يروي عطشها.

وقد جذبت التجربة الصوفية أنظار كثير من الروائيين الجزائريين المعاصرين، و أضى عندهم التجريب الصوفي ظاهرة جديدة تستوجب الاهتمام، ومن بين هؤلاء الروائيين "الروائي محمد مفلّاح" الذي أدرك ما تحمله هذه الأخيرة من كنوز إبداعية جمالية تتناسب و رغباته وميولاته، يستنطق بها أعماق ذات شخصياته المشحونة بالآلام الواقع وعذاباته، وهو بذلك يسعى إلى « تقمص وجدانات الصوفية في أسعى تجلياتها »⁶. وهذا ما يدفعنا إلى طرح التساؤل الآتي: أين تتجلى التجربة الصوفية في روايات محمد مفلّاح ؟ سعيا منّا إلى الغوص في التجربة الروحية العميقة التي استقاها محمد مفلّاح من الصوفية وجسدها في روايتي "عائلة من فخار" و"شعلة المائدة".

2. التجربة الصوفية في روايتي "عائلة من فخار" و"شعلة المائدة": تتجلى التجربة الصوفية فيهما من خلال:

1.2.1 المقامات في رواية عائلة من فخار:

لو رجعنا إلى رواية (عائلة من فخار) لوجدناها محمّلة بتجربة صوفية يتذوقها الوالد لخضر ولد فخار بانتقاله من مقام إلى آخر إلى أن يصل إلى كشف حقائق الوجود ويشرب من كأس المحبة الإلهية، وتكون هذه المحطة الأخيرة بعد محطات أولية هدفها: «إماتة شهوات النفس، وقطع علائقها بالدنيا، وتطهيرها من كل ميل إلى غير الله، ويطلق الصوفية على هذا اللون من الترويض النفسي اسم (المجاهدة)، وقد قسمتها كتب الصوفية إلى عدة درجات تقضي كل درجة إلى درجة أخرى هي أرفع من سابقتها شأنًا، وقد أطلقوا على هذه الدرجات اسم (المقامات)»⁷

والمقام: «معناه مقام العبد بين يدي الله عزوجل (...) يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله عزوجل (...)، والمقامات مثل التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل وغير ذلك»⁸، وسنفصل في هذه المقامات حسب ورودها داخل رواية (عائلة من فخار) التي هيمن عليها المرجع الصوفي بكل إحياءاته:

1.1.2 مقام التوبة:

التوبة هي أساس كل المقامات، لأن الصوفي لا يرتقي من مقام إلى آخر ما لم يستوف أحكام المقام الذي هو فيه: «كُلّ المقامات تفتقر إلى التوبة، فالتوبة تفتقر إلى توبة أخرى بَعْدَ نَصُوحِهَا، والخوف يفتقر إليها بحصول الأمن والاعتزاز، والرّجاء بحصول القنوط والإياس، والصبر بحصول الجزع، والزهد

بخواطر الرغبة ، والوَرَعُ بتَبَعِ الرُّخصِ أو خواطر الطمع، والتوكل بخواطر التدبير والاختيار، والاهتمام بالرزق، والرضا والتسليم بالكراهية (...); و لذلك كان عليه الصلاة والسلام ((يستغفر في المجلس الواحد سبعين مرة أو مائة)).⁹

وقد تعددت تعريفات أعلام التصوف للتوبة، ونورد البعض منها:

- يقول الجنيد عن التوبة: «هو نسيان ذنبك». ¹⁰

- يقول ذو النون: «توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة». ¹¹

والتوبة عند الصوفيين من خلال هذين التعريفين تكمن في: الرجوع من الذنب إلى التوبة، ومن الغفلة إلى اليقظة، ومن ملذات الدنيا إلى ذكر الله .

ويتجسد مقام التوبة في رواية (عائلة من فخار) حين تطفن لخضر ولد فخار لغفلته التي كان يعيشها، فحياته السابقة قبل التقاعد المفاجيء لم تكن تلك الحياة التي ترضيه حيث أصبح ينتقدها، حيث جاء في الرواية :« تريده منه وهو أن يعود إلى طبيعته الأولى. أن يصبح زوجا ثرارا يهتم بالحياة التافهة، ويردد ما ينسجه الناس من إشاعات في المقاهي و الأسواق. تريده أن يغرق في أحوال الدنيا. لقد عزم على قهر نفسه، والابتعاد عن هذا الواقع الزائل». ¹² وتوبة لخضر ولد فخار هنا تتمثل في الرجوع من الغفلة إلى اليقظة، «والمحاسبة بتضييع الأوقات في غير ما يقرب إلى الحق والمحبة بميل القلب إلى غير المحبوب»¹³، وذلك بترك الحياة الصاخبة الفانية، والتوجه إلى حياة العزلة التي أصبح يفضلها على حياة العيش.

وما أعانة على اليقظة أكثر إحساسه بالفقد خاصة بعد تقاعده ، فقد أحس نفسه أنه كان يعيش في سجن العمل الذي سلب منه حريته و ضيع له وقته الثمين، وكان حتى عبادته الوحيدة، وبعد التقاعد أصبح وحيدا لا أصدقاء له، ولا مال له، وجد نفسه في خصام دائم مع أفراد عائلته «لقد قضي في المؤسسة سبع وعشرين سنة. وأصبح العمل عبادته الوحيدة. كان يقصد المؤسسة بعد صلاة الفجر، ولا يعود إلى البيت إلا بعد غروب الشمس. فجأة انهارت أحلامه، وأصبح شخصا وحيدا لا أصدقاء له، ولا مال لمواجهة المستقبل المجهول. (...) وجد نفسه في خصام دائم مع أفراد عائلته». ¹⁴

فأضاف كل هذا إحساسه بالحيرة وكاد يفقد عقله، وراح يبحث عن وجهة جديدة يجد فيها السعادة وتخلصه من حياة التعاسة والبؤس التي يعيشها ومن زمن الفساد الذي أصبح يعم كل مكان، فكان هذا الإحساس وطبيعة المرحلة التي دخلت فيها أحداث الرواية " زمن الانفتاح والتعددية" محطة لانتقاله ودخوله إلى تجربة جديدة.

وهذا الإحساس بداية لتوبته ودخوله في التوجه الصوفي و سلك طريق المقامات، ويكون هذا الإحساس أول مقام في مسيرته للوصول إلى الراحة والطمأنينة « هكذا بدأ مسيرته الجديدة، فابتعد عن جو العائلة الصاخب، وكف عن الجري وراء منصب عمل تافه»¹⁵.

وقاده هذا الإحساس أيضا إلى طرح أسئلة حول الموت، حيث حيره لغز الموت، هذه الحيرة أسهمت في دفعه لإعادة البحث عن طريق جديدة لحياته وولوجه في عالم التصوف: « حيره كثيرا لغز الموت فخالط الناس وطاردهم بأسئلته المخرجة ولكنه لم يستفد منهم بأي رأي سديد، بل ازداد حيرة من إجاباتهم الساذجة أو الغامضة، ثم لجأ إلى مسجد الحي وألح بأسئلته الغريبة على الإمام « عبد الناصر» الذي عجز عن إقناعه. وبعد ذلك قصد الزاوية الخضراء بنصيحة من «عدة الشواف» زميله القديم في المؤسسة الذي أصبح من مريدي الطريقة الصوفية. وجد عند الشيخ المنور الراحة التي كان ينشدها. تفكيره المستديم في لغز الموت، كاد يفقده عقله لولا الشيخ العارف بالله الذين نصحه بمداومة الذكر»¹⁶. هكذا بدأ مسيرته الجديدة على يد الشيخ المنور الذي أنقذه من التيه الذي عاشه بعد تقاعده.

2.1.2. مقام الورع:

الورع عند المتصوفة يختلف عن الورع عند العامة، «فروع العامة ترك الحرام المتشابه، وورع الخاصة ترك كل ما يُكِدِّرُ القلب ويجد منه كزازة وظلمة، (...)». وورع خاصة الخاصة: رفض التعلق بغير الله، وسد باب الطمع في غير الله، وعكوف الهم على الله، وعدم الركون إلى شيء سواه، وهذا هو الورع الذي هو ملاك الدين»¹⁷. وهذا هو ورع المتصوفين.

إذ أن ورع المتصوفين العارفين هو ترك كل ما يشغلك عن الله تعالى، كما قال أبو سليمان الداراني رحمه الله عن الورع: «كل ما شغلك عن الله فهو مشؤوم عليك»¹⁸. وسئل عنه الشبلي رحمه الله: «فقل له يابا بكر ما الورع فقال أن تتورع أن لا يتشتت قلبك عن الله عزوجل طرفة عين»¹⁹.

ويظهر ورع المريد لخضر ولد الفخار في رواية (عائلة من فخار) في تركه للحياة الفانية وكل ما يشغل العوام من رغبات الوظيفة ورغبات الجسم وغيرها، والانشغال في الغوص أكثر في أعماق ذاته لتتحد مع الذات الإلهية التي تتسلل إلى قلبه بكل حب.

فقد كان دائم التعلق بالله تعالى ويظهر ذلك من خلال تفضيله لحياة العزلة التي اختارها، وظهر ذلك في عدة مواضع في الرواية:

-«شعر بأن الليل الهادئ جعله يطمئن أكثر إلى حياة العزلة التي أصبح يفضلها على حياة العبث.»²⁰

- «لست مهموما كما تتوهمين.. أنا راض بحياتي.»²¹.

مقام الورع هذا الذي ارتقى إليه المريد لخضر ولد فخار لم يكن سهلاً الوصول إليه أمام احتياجات الزوجة على التغيرات التي طرأت عليه، فقد أصبحت ترى بأنه لا شيء أصبح يثير اهتمامه في البيت، ومن شدة عتابها له أصبح يتمنى عدم لقاءها عند عودته إلى البيت، «وواصل سيره بهدوء عائداً إلى بيته. تمنى ألا يلتقي بزوجه». ²² فصبره على ردود أفعال زوجته نوع من المجاهدات التي أسهمت في ارتقائه إلى مقام الورع، لأن: «المقامات تحصل ببذل المجهود» ²³. والورع يقتضي الزهد، لأن كل مقام يفضي إلى مقام آخر أرفع منه شأنًا ومرتبة.

3.1.2. مقام الزهد:

مقام الزهد مقام قلبي رفيع المنزلة، لكونه يفرغ حب الدنيا والتعلق بها من القلب، فالزهد: «خلو القلب من التعلق بغير الربِّ. أو برودة الدنيا من القلب، وعزوف النفس عنها. (...) وهو سبب المحبة كما قال عليه السلام: ((ازهد في الدنيا يحبك الله))» ²⁴ فالزهد مقام رفيع لأنه سبب لمحبة الله تعالى.

ومن أهم المقامات مقام الزهد، إذ هو: «مقام شريف وهو أساس الأحوال الرضيّة، والمراتب السنيّة، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عزّ وجلّ والمنقطعين إلى الله والراضين عن الله والمتوكلين على الله تعالى، فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصحّ له شيء ممّا بعد؛ لأنّ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة والزهد في الدنيا رأس كلّ خير وطاعة، ويقال أن من سميّ باسم الزهد في الدنيا فقد سميّ بألف اسم محمود، ومن سميّ باسم الرغبة في الدنيا فقد سميّ بألف اسم مذموم» ²⁵.

وإذا كانت من طبيعة النفس الإنسانية حبّ الدنيا والتعلق بحلاوتها، حيث قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَ حُسْنِ الْمَالِ ١٤﴾ ²⁶، فإن المريد تجده يجاهد ويتحدى نفسه من أجل منعها عن هواها وعن اشتغالها بالدنيا ودفعها للعمل للآخرة الباقية.

ويظهر زهد السالك المريد لخضر ولد فخار من خلال اقتناعه ببعض الأمور ساعدته على الارتقاء إلى هذا المقام، ومن بين هذه الأمور:

* علمه ويقينه بأن هذه الدنيا فانية وزائلة، وأن دار الآخرة هي دار البقاء، ونجد هذا المعنى يتجسد في مواضع مختلفة من الرواية، نذكر منها:

- «حقاً.. كل من عليها فان فلماذا كل هذا التعب» ²⁷

* علمه أن الدنيا من وراءها دار عظيمة هي دار البقاء، وأن هناك يوم بعث وحساب، يكون الجزاء فيه من جنس العمل، من عمل صالحا يفز بنعيم الجنة، ومن عمل عكس ذلك يُلقى في عذاب جهنم، ولعل هذا المقطع الوارد داخل الرواية يؤكد ذلك: «استغفر الله ونظر إلى النجوم التي كانت تزين السماء. وبدأ تلاوة سورة الواقعة» بسم الله الرحمن الرحيم. إذا وقعت الواقعة. ليس لوقعها كاذبة. خافضة رافعة. إذا رجّت

الأرض رجا» (...) ثم شرع في تلاوة سورة الانفطار بصوت مرتفع. وفي اللحظة الذي ردد فيها الآية: «يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله». انتصبت أمامه زوجته، و أشارت إلى بيوت الجيران، ثم همست قائلة له برجاء:

- يارجل الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.²⁸

وقراءته لسورة الانفطار بصوت مرتفع تدلّ على فناء وسمو ذات لخضر ولد فخار في العالم الروحي وذوبانها فيه، حيث لم يأبه للجيران ولم يكثرث لأمرهم، وأصبح يتمنى و يشناق للخلوة بنفسه، إذ «تمنى لو كانت له غرفة واسعة ومكيفة يقضي فيها وقته في الصلاة والذكر وتلاوة القرآن الكريم ومطالعة الكتب القديمة».²⁹

كما تخرج كلمة (الواحدة) في عبارة (يارجل الساعة الواحدة) الواردة في المقطع المذكور سابقا، عن سياقها الزمني لترمز إلى الله تعالى الذي لا شريك له، وخاصة عندما ذكرت بعد الآية: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۝١٩﴾³⁰.

ومقام الزهد نجد لخضر ولد فخار يتدرج فيه إلى أن يصل ذروته وأعلى مراتبه، وسنتتبع خطواته في صعود سلمه إلى أن يستوفي أحكامه من خلال الربط بينه وبين علاقته بعائلته، هذه العلاقة أظهرت مراحل زهده و التي نميّز فيها ثلاث مراحل:

* المرحلة الأولى: ظهر فيها بداية زهده، حيث قطع صلته بالحياة الفانية، وأظهر اطمئنانه لحياة العزلة، «لا شيء أصبح يربطه بالحياة الصاخبة الفانية (...)». شعر بأن الليل الهادئ جعله يطمئن أكثر إلى حياة العزلة التي أصبح يفضلها على حياة العبث³¹. ويسمى هذا الزهد "زهد العامة": «فزهّد العامة ترك ما فضل عن الحاجة في كل شيء»³².

إلا أننا نجد في بداية زهده هذا لم يهمل واجباته العائلية، حيث جاء في الرواية: «أصبح قلبه اليوم مطمئنا (...)». لن يترك حياة الأحوال تسيطر عليه (...) ورغم ذلك، مازال مهتما بشؤون أولاده³³ وهنا تظهر مزاجية لخضر ولد فخار بين زهده وعائلته.

* المرحلة الثانية: أصبح جلّ وقته يقضيه في الزاوية وزيارة الأضرحة، أو للتعبد في مغارة وادي مينه، أو في غرفته، أهمل شؤون البيت وأصبح لا يهتم بما كان يجري داخله، حيث جاء في الرواية: «لقد أصبح لخضر يقضي جل وقته في الزاوية أو يسافر إلى منطقة جبل الأخيار لزيارة أضرحة الأولياء الصالحين أو للتعبد في مغارة وادي مينه، أو يدخل غرفته، ويغرق في تلاوة القرآن الكريم ومطالعة كتب التصوف وترديد الأذكار والمدائح الدينية، ولا يهتم بما كان يجري في البيت».³⁴

وهنا تدرج لخضر ولد فخار في الزهد، حيث ترك كل ما يشغله عن التقرب إلى الله تعالى، فلم يعد مهتما بما يجري حوله، وتسمى هذه المرتبة "زهد الخاصة"، وهي: «ترك كل ما يشغل عن التقرب إلى الله في كل حال».³⁵

* المرحلة الثالثة: بلغ فيها أعلى مراتب الزهد، وتسمى زهد خاصة الخاصة، وتعني: «ترك النظر إلى ما سوى الله في جميع الأوقات».³⁶ لذلك نجد لخضر ولد فخار يجمع ملابسه في الحقيبة، ويسافر إلى ضاحية خلوة مينة تاركا بيته، فجاء في الرواية: «جمع ملابسه القليلة في حقيبة جلدية (...) ركب أول حافلة متوجهة إلى ضاحية خلوة مينة. سيبقى هناك حتى يعود إلى نفسه بعض الصفاء الروحي الذي يمدّه بالقوة على مواصلة مهمته في هذه الحياة التي بدت له أنها في حاجة إلى حب كبير حتى يستقيم أمرها».³⁷

ومن خلال مقام الزهد هذا الذي ارتقى إليه المريد لخضر ولد فخار نعرف حال السمو والتطهير اللذين بلغهما روحيا، فالمقامات: «يعرف المسافر بواسطتها (أحواله) الروحية، وكل (حال) أمانة على مستوى السمو، والتطهير اللذين بلغهما الصوفي روحياً».³⁸ والحال يظهر أثره على القلب و الجوارح، وهو مثل: «المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والاطمئينة والمشاهدة واليقين وغير ذلك».³⁹

ومن الأحوال التي تظهر في مقام الزهد الذي وصل إليه لخضر ولد فخار، حال المحبة والشوق اللتين ارتسم أثرهما في قلبه حين وصل إلى ضاحية زاوية مينة، حيث جاء في الرواية: «فجأة جرت دموع الشوق في أعماقه. شعر في تلك اللحظات السحرية بوهج النور الذي بدأ يتسلل إلى قلبه الخافق بحب كل العالم».⁴⁰ والزهد يقتضي الفقر.

4.1.2. مقام الفقر:

ويأتي بعد مقام الزهد مقام الفقر، وهو مقام سامي وشريف عند الصوفيين، حيث يروونه بأنه: «رداء الشرف، ولباس المرسلين، وجلباب الصالحين، وتاج المتقين، وزين المؤمنين، وغنيمة العارفين، ومُنية المريدين، وحصن المطيعين، وسجن المذنبين، ومكفر للسيئات، ومُعظم للحسنات، ورافع للدرجات، ومُبلغ إلى الغايات، ورضا الجبار، وكرامة الأهل، ولايته من الابرار، والفقر شعار الصالحين».⁴¹

-ويُعرف الفقر أنه هو: «نفض اليد من الدنيا، وصيانة القلب من إظهار الشكوى».⁴²

وقد تحدثت رواية (عائلة من فخار) عن فقر المتصوفة وتقشفهم من خلال التحدث عن سيرة سيدي الهواري الذي هو أحد رجال التصوف، فورد فيها: «ثم شرع في القراءة عن سيرة سيدي الهواري، وتوقف عند الفقرة التي تحدث فيها المؤلف عن تقشفه في الملبس والمأكّل والمشرب».⁴³

ويظهر مقام الفقر في رواية (عائلة من فخار) من خلال إيرادها لبعض المقاطع التي توحى بافتقار لخضر ولد فخار ونفض يديه من الدنيا، ورفضه للموجود، ورضائه بالمعدوم.

حيث جاء في الرواية: «آه.. لو كانت تملك مالا لمساعدت به والدها للخروج من عزلته المخيفة (...) لقد تخلى والدها عن ارتداء بدلاته الأنيقة وربطات العنق الحريرية، وعوضها بالسراويل العربية وبخاصة «الشرقي»، والعباءات الفضفاضة البيضاء، والعمامة الصفراء»⁴⁴. وبتخلي لخضر ولد الفخار عن بدلاته الأنيقة يظهر رفضه للموجود ورضائه بالمعدوم.

ويتجلى مقام الفقر عند لخضر ولد الفخار كذلك في قول السارد: «ثم قام وقصد الرف الخشبي فأخذ خيزرانتته. ووضعها تحت إبطه الأيمن، ثم حمل حذاءه القديم الذي انتعله عند عتبة المسجد»⁴⁵. وقوله أيضا: «وأخرج كتابا قديما من دولاب الخزانة الخشبية، ثم جلس على الزريبة القديمة»⁴⁶. ونجد لفظتي (حذاءه القديم) و (الزريبة القديمة) تشيران إلى سعي لخضر ولد الفخار إلى الافتقار من الدنيا وعدم الانشغال بها واستغلال ذلك في تحقيق الغنى بالله، فقد اتخذ مقام الفقر وسيلة لبلوغ غاياته.

5.1.2. مقام الذكر:

وهو من المراتب والمحطات التي يصل إليها المريد و يمرّ منها للوصول إلى الله تعالى، كما أنه هو الأساس الذي تبنى عليه بقية المقامات ليخرجها من الغفلة ويوصلها إلى التوحيد بالله ونيل رضوانه، لأن: «الذكر طرد الغفلة فإذا ارتفعت الغفلة فأنت ذاك»⁴⁷.

كما يساعد السالك على إخلاء قلبه من التعلق بالدنيا والإعراض عن متاعها، لأن الإكثار من الذكر في كل الأحيان ينسيه الدنيا وينسيه حتى نفسه بمجالسته لربه عزّ وجلّ، فحقيقة الذكر: «أن تنسى ما سوى المذكور في الذكر لقوله تعالى (وَأذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) يعني إذا نسيت ما دون الله فقد ذكرت الله»⁴⁸.

والذكر بنوعيه ذكر اللسان وذكر القلب هو: «ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو العمدة في هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر»⁴⁹.

لذلك نجد رواية (عائلة من فخار) تورد فضل الذكر ومكانته في سياق حديثها عن لخضر ولد الفخار، فجاء فيها: «ثم حرك حبات السبحة العاجية البنية، وردد ما حفظه من أذكار لما كان يعرفه عن فضل الذكر. فالذكر كما قرأ في كتاب وجده في خزانة الشيخ المنور، هو أشرف العبادات لأن سائر العبادات تنقضي بانقضاء الدنيا إلا ذكر الله تعالى، وهو سبب السعادة في الدنيا والآخرة، وبه تحيا القلوب كما يحيا الزرع بالمطر. وظل الرجل يحرك حبات السبحة»⁵⁰.

2.2. توظيف ألفاظ الصوفية

لكل علم مصطلحاته التي تميزه ويُعرف بها، ويتعارف أصحاب هذا العلم بعضهم مع بعض من خلالها، لذلك: «فإن الصوفية لم يفعلوا شيئا غريبا عندما استنوا لأنفسهم منهجا ونظاما وألفاظا لا يفهمها غير أهل الحقيقة وتكون للغريب غير معلومة»⁵¹.

فاللصوفيين ألفاظا يستعملونها فيما بينهم يتميزون وينفردون بها عن غيرهم، اتفقوا عليها لأغراض لهم فيها:» من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة الوقوف على معانيهم لأنفسهم، والإجمال والستر على من باينهم في طريقتهم؛ لتكون معاني ألفاظهم مستهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها»⁵²

والمصطلحات الصوفية تتنوع مدلولاتها وتتعدد بحسب السياقات الواردة فيها، مبتعدة في كثير من المرات عن المدلول اللغوي، بحيث « نرى المصطلح في بعض السياقات ذا صلة بالمدلول اللغوي العام بينما تكاد الصلة تنقطع في سياقات أخرى، وتبدو منقطعة تماما موعلة في الرمز في نوع ثالث من السياقات»⁵³.

وقد شكل المصطلح الصوفي عند محمد مفلح بهارا فنيا رشّ به رواية (عائلة من فخار) ليعطيها ويكسيها نكهة صوفية خاصة تدفع القارئ للبحث في هذه الألفاظ، والوقوف على معانيها ليتلذذ بها بين سطور الرواية، لأن: « المصطلح الصوفي لا يمكن أن يدرك معناه المحدد إلا من له ثقافة صوفية واسعة، أما بالنسبة للقارئ العادي فإنه لا يستطيع أن يدرك جزءا من مدلول المصطلح، ذلك لأن المصطلح قد انبت تماما عن المدلول اللغوي العام»⁵⁴. ومن المصطلحات التي رجعت إليها الرواية لفظا ومعنى:

1.2.2. الموت:

باصطلاحهم قمع هوى النفس فإن حياتها به، ولا تميل إلى لذاتها وشهواتها، ومقتضيات الطبيعة البدنية إلا به، وإذا مالت إلى الجهة السفلية جذبت القلب الذي هو النفس الناطقة إلى مركزها، فيموت عن الحياة الحقيقية العلمية التي له بالجهل، فإذا ماتت النفس عن هواها بقمعه انصرف القلب بالطبع والمحبة الأصلية إلى عالمه، عالم القدس والنور والحياة الذاتية التي لا تقبل الموت أصلا.⁵⁵

فالموت عند المتصوفة هو انصراف النفس عن ملذاتها وشهواتها، فإذا ماتت النفس عن هواها بقمعها تبدأ الحياة الحقيقية، ونجد هذا المعنى مذكورا داخل رواية (عائلة من فخار) في سياق حديثها عن لخضر ولد الفخار، الذي ابتعد عن جو العائلة الصاخب وعن الواقع الزائل وقمع نفسه وقهرها من أجل أن يبدأ حياته الحقيقية، حيث جاء فيها: « لقد عزم على قهر نفسه، والابتعاد عن هذا الواقع الزائل. اكتشف بعد اتصاله بالشيخ « المنور الحسيني » أن الإنسان ولد ليموت، وبموته تبدأ الحياة الحقيقية.»⁵⁶.

2.2.2. الشيخ:

هو الذي رُفعت له جميع الحُجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية نظرا عينياً وتحقيقاً يقينياً⁵⁷.

كما أن الشيخ عند المتصوفة: «هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، البالغ إلى حد التكميل فيها؛ لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها، ومعرفته بذواتها، وقدرته على شفائها والقيام بهداها، إن استعدت ووفقت لاهتدائها».⁵⁸

ويحتل الشيخ عند المتصوفة مكانة مرموقة، إذ يعدّ الأستاذ والموجه والمرشد لكل سالك ومريد، ونجد لفظه الشيخ حاضرة في رواية (عائلة من فخار) في هذا السياق:
- «وجد عند الشيخ المنور الراحة التي كان ينشدها».⁵⁹

فالشيخ المنور قد ألقى بظلال نوره على لخضر ولد الفخار، وأنار له الطريق، وأنقذه من التيه، وأعاد له راحته، وأخذ بيده، حيث جاء في الرواية: «لقد أنقذه الشيخ المنور من التيه الذي عاشه بعد تقاعده».⁶⁰

3.2.2. العارف:

يعني التوجه إلى الله تعالى، ومن وصل إلى شهود الحق ورسخ فيه كان عارفاً⁶¹، فالعارف عند المتصوفة: «هو الذي بذل مجهوده فيما لله، وتحقق معرفته بما من الله، وصح رجوعه من الأشياء إلى الله، قال الله تعالى (تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا مِنَ الْحَقِّ)»⁶².

ووردت هذه اللفظة في قول السارد: في رواية (عائلة من فخار) «لولا الشيخ العارف بالله الذي نصحه بمداومة الذكر».⁶³

4.2.2. المريد:

في اصطلاحهم، هو الذي تَعَلَّقَتْ إرادته بمعرفة الحق، ودخل تحت تربية المشايخ وقد تقدّم⁶⁴. والمريد هو رتبة من رتب الصوفية، وقد رجعت رواية (عائلة من فخار) إلى هذه اللفظة في عدة سياقات، منها:
- «أصبح من مريدي الطريقة الصوفية».⁶⁵

5.2.2. الأولياء الصالحون:

- أما الصالحون عند المتصوفة: «فَهُمْ مَنْ صَلَحَتْ أَعْمَالُهُمُ الظاهرة، واستقامت أحوالُهُمُ الباطنة.
- وأما الأولياء: فهم أهل العلم بالله على نعت العيان (...) وقيل: من تَوَالَتْ طَاعَتُهُمْ، وَتَحَقَّقَ قُرْبُهُمْ واتصل مَدَدُهُمْ».⁶⁶

وجاءت هذه اللفظة في قول السارد في رواية (عائلة من فخار): «لقد ازداد الرجل اهتماما بسير مشايخ التصوف والأولياء الصالحين».⁶⁷

ويعتقد الصوفيون أنه من الواجب زيارة الولي في قبره، لأن الولي لا تذهب كراماته بعد وفاته بل تلزمه في قبره وتبقى حتى بعد وفاته، حيث أن الكرامات: «للأولياء الأحياء منهم والأموات، إذ الولي لا ينزل عن ولايته بالموت»⁶⁸.

ورجال الدين الصوفية يهتمون بزيارة الأولياء الصالحين الأحياء والأموات لنيل البركة، فيقول أبو حامد الغزالي: «ويدخل في جملة زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام، وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته، يتبرك في زيارته بعد وفاته، ويجوز شد الرحال لهذا الغرض»⁶⁹.

لذلك نجد لخضر ولد الفخار يشد الرحال، و«يسافر إلى منطقة جبل الأخيار لزيارة أضرحة الأولياء الصالحين»⁷⁰، للتبرك بهم والدعاء ونيل رضاهم، لأن الصوفية يرونا أن الأولياء: «بهم تنقضي حوائج العباد، وببركتهم يدفع البلاء عن البلاد، وبدعائهم تنزل الرحمة، وبوجودهم تصرف النعمة»⁷¹.

3.2. الرجوع إلى الشخصيات الصوفية:

رجع الروائي محمد مفلح إلى جملة من الشخصيات الصوفية التي أسهمت إلى حد كبير في تلوين بعض رواياته باللون الصوفي وأكسبتها حمولة ملحوظة، وذلك نظراً لثقل هذه الشخصيات في الواقع وما تحتله من مكانة مرموقة يُشهد لها، ومن الروايات التي حملت الشخصيات الصوفية رواية (عائلة من فخار) و رواية (شعلة المائدة).

1.3.2 رواية عائلة من فخار: من الشخصيات الصوفية الواردة داخل الرواية نذكر:

1.1.3.2 الرواد الأوائل للتصوف:

نجد في الرواية ذكر لرجال التصوف منذ عصر الرواد الأوائل "الحسن البصري، والحلاج، ورابعة العدوية، والسهرودي، وسيدي عبد القادر الجيلالي في موضع واحد، حيث جاء فيها: «وأمسك بالكتاب الذي استعاره من الشيخ المنور. جمع مؤلف الكتاب تراجم عديدة عن رجال التصوف منذ عصر الرواد الأوائل كالحسن البصري، والحلاج، ورابعة العدوية، والسهرودي، وسيدي عبد القادر الجيلالي.. وإلى غاية القرن التاسع عشر الميلادي، زيادة عن تراجم لبعض أولياء الله الصالحين»⁷².

ويشير ذكر هؤلاء الرواد إلى انجذاب الروائي محمد مفلح لهم، واهتمامه بسيرهم، وقد عبّر عن ذلك في سياق حديثه عن لخضر ولد فخار «لقد قرأ الكتاب مرارا، ولكنه ظل منجذبا إلى سير رجال الصوفية والأولياء الصالحين الذين وصلوا إلى أعلى المراتب في العبادة والزهد والتعفف والتأمل»⁷³.

وذكر لفظة (قرأ) دعوة من الروائي إلى قراءة سير رجال الصوفية والاهتمام بهم، وإقامة بحوث ودراسات حولهم حتى يُنفذ عنهم الغبار ويعاد إحياءهم بعد موتهم في ذاكرة النسيان.

*سيدي الهواري:

محمد بن عمر بن الهواري هو: «الشيخ الولي الصالح العارف بالله القطب أبو عبد الله كان كثير السياحة، (...)، نفعنا الله به فقد بلغت كراماته التواتر المعنوي، واشتهرت بين العام والخاص اشتهارا عظيما، وقد أجمع على تعظيمه وتسليم التقديم له في الولاية كل من عاصره من بلاد المغرب من الأولياء». ⁷⁴.

واسمه الكامل: «الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر بن عثمان المغراوي الهواري، ينسب إلى قبيلة هواره لأنه تربى فيها فقط. (...) ولد بهواره شرق مدينة مستغانم سنة 751هـ = 1350م تربى بين أهله وعشيرته حتى حفظ القرآن (...)، وأخذ التصوف عن ولي صالح هناك» ⁷⁵.

ونجد الروائي محمد مفلّاح يذكره عن طريق إيراد جزء من سيرته التي تكشف عن ما كان يمتاز به في عصره، حيث جاء فيها: «تصفح لخضر الكتاب بخشوع، ثم شرع في القراءة عن سيرة الهواري. وتوقف عند الفقرة التي تحدث فيها المؤلف عن تقشفه في الملابس والمأكّل والمشرب، وعن تواضعه الكبير. كما قرأ ما قاله ابن سعد في (روضة النسرین) عن سيدي الهواري: «وكان إذا حضر مجلسه الأغنياء وأرباب الدنيا دعاهم إلى الله بطريقة الخوف، وذكرهم بآيات انتقامه وأليم عذابه، وإذا حضر مجلسه الفقراء والمساكين دعاهم إلى الله بطريقة الصبر وذكرهم بآيات الرجاء وحسن الظن بالله، وإذا حضره أهل الصحة والعافية من التجار ذكرهم بطريقة الشكر، وحضهم على إخراج الزكاة، وأنها مطهرة للمال، ثم يندبهم لترك المعاملة مع من غلب عليه الحرام، ويبصرهم بفائدة طلب الحلال»». ⁷⁶.

وبذكر الروائي هذا المقتطف من سيرة محمد بن عمر بن هواري تتبيّن ثقافته الواسعة المشحونة بشغف مطالعة سير مشايخ التصوف وأوليائه، خاصة بعد ذكر كتاب "روضة النسرین" الذي هو أشبه بسجلات الحالة المدنية، حيث هو سجل خاص بالدولة المرينية: «يتضمن أسماء ملوكها وكناهم وألقابهم وأنسابهم، وتواريخ موالدهم وولاياتهم ووفياتهم والمدد التي قضوها في الملك، مع بيان أوصافهم الخلقية والخلقية، و ذكر رجال دولهم من وزراء وحجاب، وقضاة وكتاب» ⁷⁷. مما يسهل على القارئ معرفة بعض رجال التصوف الذين ارتبطت أسماؤهم بتلك الأيام.

*سيدي إبراهيم التازي:

إبراهيم بن محمد بن علي اللّتي التازي، نزيل وهران الشيخ أبو سالم وأبو إسحاق، هو الإمام العالم العلامة الناظم البليغ الولي الورع الزاهد الصالح الناصح العارف، صاحب الكرامات والأحوال البديعة العجيبة، والقصائد الرائقة الأنيقة ⁷⁸.

و إبراهيم بن محمد التازي: «كان من الأولياء الصالحين والعباد الناصحين، إماما في علوم القرآن متقدما في علوم اللسان، حافظا للحديث بصيرا بالفقه وأصوله، ذا معرفة تامة بأصول الدين، إماما من الأئمة، كثير التقاييد في الفقه والأصول والحديث» ⁷⁹.

ونجد الروائي محمد مفلح يشير إلى ذلك في الرواية، حيث يقول السارد: «ثم انهمك في مطالعة ترجمة سيدي إبراهيم التازي، تلميذ سيدي الهواري، وهو ولي صالح، وعالم ضليع في الفقه وعلم اللغة والبلاغة، وشاعر اشتهر بقصائد في الزهد وذم الدنيا»⁸⁰. وهذه الإشارة تدل على ثقافة الروائي الواسعة، واطلاعه على سيرة إبراهيم بن محمد التازي.

توفي إبراهيم بن محمد التازي: «تاسع شعبان عام ستة وستين وثمان مائة 866هـ= أول ماي 1462م، بوهران ودفن بها، ثم نقله تلاميذه إلى قلعة بني راشد بعد الاحتلال الأسباني لوهران وذلك بصورة سرية»⁸¹.

و الرواية نجدها تتوسع في عنصر نقل رفات إبراهيم بن محمد التازي، حيث ورد فيها: «توفي بمدينة وهران ودفن بمقبرها، وبقي في ضريحه مدة خمسين سنة. وفي الفترة التي احتل فيها الغزاة الإسبان مدينة وهران وعاثوا في مكان الضريح فسادا، ساء ذلك أهل القلعة فنقلوا رفات سيدي إبراهيم التازي سرا إلى مدينتهم الشهيرة، وضريحه موجود قرب مسجد مدينة القلعة التابعة لولاية غليزان»⁸².

وقد اشتهر إبراهيم بن محمد التازي: «بقصيدته المعروفة بـ "المرادية" وهي قصيدة في التصوف، وسميت بذلك لأنه افتتحها بقوله "مرادي":

مرادي من الله وغاية آمالي دوام الرضا عني والعفو عن أعمالي»⁸³.

و نجد الرواية تذكر هذه القصيدة في قول السارد: «ووجد لخضر في الكتاب بعض مقتطفات من قصائد سيدي إبراهيم التازي ومنها قصيدته المعروفة بالمرادية التي حفظها على ظهر قلب»⁸⁴، وفي عبارة (حفظها على ظهر قلب) إشارة من الروائي إلى الاهتمام بالموروث الأدبي لرجال التصوف وجمعه وحفظه من الاندثار.

*سيدي أحمد بن يوسف الراشدي:

هو الشيخ الولي الصالح القطب الغوث الزاهد العارف العالم، أبو العباس سيدي أحمد بن يوسف الراشدي نسبا الملياني دارا، من أعيان مشائخ المغرب العربي، وعظماء العارفين وأحد أوتاد التصوف الإسلامي، (...)، ولد بقلعة بني راشد التي تقع بين غليزان ومعسكر، تنتمي أسرته إلى بني مرين (...). عارض الحكم المريني معارضة شديدة، وذلك بسبب تحالف المرينيين مع الأسبان، واتصل بالأتراك وساعدهم على مقاومة الأسبان⁸⁵.

ولأجل هذا شيد الأتراك على: «قبره الحقيق ضريحا ومسجدا كلاهما فاخرا (...) من مالية باي وهران محمد الكبير (...) بهذا أصبح سيدي أحمد بن يوسف بمليانة الولي الوحيد الذي لا ينازعه منازع»⁸⁶.

ونجد الروائي محمد مفلح يشير إلى هذا المنعطف من سيرة أحمد بن يوسف الراشدي والذي يتبين من خلاله إمامه بسيرة هذا الولي الصالح، حيث جاء فيها: «ثم راح يقرأ بصوت هامس ما كتبه الشيخ أحمد الغليزاني الذي ذكر أن الباي محمد الكبير فاتح وهران عام 1792م، هو من شيد ضريح سيدي أحمد بن عودة كما ابنتي ضريح سيدي أحمد بن يوسف الراشدي دفن مدينة مليانة».⁸⁷

2.3.2.رواية شعلة المائدة:

كما نجد رواية (شعلة المائدة) تحمل كذلك جملة من مشايخ التصوف والأولياء الصالحين منهم على سبيل المثال لا الحصر:

*سيدي محمد السنوسي:

سيدي محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب الإمام السنوسي، وقد اشتهر نسبه إلى القبيلة المعروفة بالمغرب من قبل أبيه الحسني نسبة إلى الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما من قبل أمه⁸⁸، وهو عالم تلمسان وصالحها وكثير زهادها في عصره⁸⁹. قال عليه تلميذه الملاي: «عالمها وصالحها وزاهدنا وكبيرها الشيخ العلامة المتقن، الولي الصالح ابن الشيخ الصالح الزاهد العالم الأستاذ المحقق المقرئ الخاشع أبي يعقوب يوسف السنوسي، نشأ خيرا فاضلا مباركا صالحا».⁹⁰

ولد بتلمسان حوالي سنة 832هـ=1428م ونشأ بها⁹¹. توفي بتلمسان عن ثلاث وستين سنة⁹². وله تصانيف كثيرة تجاوزت الخمسين، في شتى الموضوعات والعلوم⁹³. في العقائد، والتصوف، والتفسير، والحديث، والمنطق وغيرها.

ونجد رواية (شعلة المائدة) تذكر الإمام السنوسي في هذا السياق: «- خبرني.. ماذا جرى للباي خليل؟

أسند الحاج يحي ظهره إلى إحدى ركائز الخيمة وتنحنح قائلاً: -لقد أصيب بعلة غريبة فحملوه إلى تلمسان التي توفي بها، ثم دفن بمقبرة سيدي السنوسي».⁹⁴

وتسمية المقبرة باسم هذا الولي الصالح دليل على المنزلة التي يحتلها هذا الولي عند سكان تلمسان.

*سيدي محمد بن علي المجاجي:

(945هـ-1002هـ/1538-1594م) محمد بن علي المجاجي: عالم، من الزهاد العبّاد، كانت تشد إليه الرحال في المسائل العلمية، له الباع الطويل العريض في الشعر والقريض. من أهل مجاجة، وله فيها زاوية مشهورة، وللعربي المشرقي كتاب في سيرته سمّاه ((ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة))⁹⁵.

وتعود إليه رواية (شعلة المائدة) وتورد القليل من سيرته وتذكر معه جملة من مشايخ التصوف، حيث جاء فيها: «أخبرني والدي أن أحد أجدادي كان من تلاميذ سيدي محمد بن علي المجاجي.

وقال له الشيخ التواتي:

-سيدي محمد بن علي المجاجي قدم الكثير من أجل حماية البلاد من هجمات العدو الأسباني.

-وتنجنح محمد الشلفي ثم قال:

- وكان صاحب زاوية شهيرة تخرج منها الكثير من الفقهاء والعلماء والصلحاء ومنهم الشيخ سعيد قدورة، وسيدي أمحمد بن عودة، وسيدي عبد القادر بن يسعد، وسيدي دحو..»⁹⁶.

وهدف الروائي محمد مفلح من خلال هذا الحوار الذي دار بين الشيخ التواتي ومحمد الشلفي هو التعريف بهذا الولي الصالح، حيث كان الشاب محمد الشلفي هو من يُعرف بهذا الولي، وهنا دعوة من الروائي إلى الشباب إلى التنقيب عن هؤلاء الفقهاء والعلماء والصلحاء وقراءة سيرهم، والافتخار بهم، وحفظهم من النسيان، والعمل على نقلهم إلى الأجيال اللاحقة.

***سيدي عبد الحق:**

سيدي محمد بن عبد الحق بن ياسين، من أعيان العباد، ولي قضاء تلمسان وكان لا يخاف في الله لومة لائم، وقتل رجلا واحدا في قضائه بتلمسان، قبره عند باب زيري داخل البلد⁹⁷.

وقد ذكرته رواية (شعلة المائدة)، حيث جاء فيها: «ابتسم الشيخ الطاهر ولم يعلق. سر بكلام ابنه النحيف الذي أصبح يعلق عليه الأمل في مواصلة سيرة أجداده العلماء، ومنهم سيدي عبد الحق الذي تولى القضاء بتلمسان في عهد الزيانيين.»⁹⁸.

كما تعود إليه الرواية كذلك في سياق حديث الشيخ الطاهر مع ابنه راشد، حيث ورد فيها: «- سافر يابني حتى تحقق حلم جدك.. فنحن ياولدي من عائلة أنجبت العديد من الفقهاء والقراء. جدك الأكبر سيدي عبد الحق كان عالما جليلا تولى القضاء والإفتاء بمدينة تلمسان، وعرف بالحكمة والاستقامة بين الناس.. وهو من تلاميذ زاوية عبد الرحمن الثعالبي.»⁹⁹.

3. خاتمة:

وفي الأخير يمكن القول و بالاعتماد على ما تناولنا في هذا البحث: فيما يخص استظهار المقامات التي انطوت عليها رواية (عائلة من فخار) والتي تدرّج فيها لخضر ولد فخار في اتجاهه إلى الوحدة مع الله تعالى، أنها أسهمت إلى حد كبير في تغذية الرواية بالتجربة الصوفية و إعطائها بعدا جماليا مشحونا بأبعاد وقيم فنية جديدة.

كما أن انفتاح رواية (عائلة من فخار) على الألفاظ الصوفية بثقلها الدلالي وكثافتها الرمزية، قد أكسبها مسحة صوفية ذات حمولة دلالية وجمالية جديدين، كما ساهم في حقن سطور الرواية بطابع صوفي ملحوظ، مما أعطاها وجها جديدا تمتزج فيه الرؤية الصوفية العميقة مع الدلالات المعاصرة.

كما نخلص إلى أن الرجوع إلى الشخصيات الصوفية السابقة بالإضافة إلى مساهمتها في صبغ روايتي (عائلة من فخار) و (شعلة المائدة) بصبغة صوفية اكسبتهما حلة جديدة، إلا أنها عبّرت كذلك عن اهتمام وشغف الروائي محمد مفلّاح بالعلماء والصالحين ومشايخ الصوفية، كما كشفت أيضا عن ثقافة الروائي الواسعة وحبّه للمطالعة، وسعيه إلى التعريف بعلماء ومشايخ وصلحاء الغرب الجزائري، والدعوة إلى الاطلاع على سيرهم، ومواصلة السير على دربهم، والحفاظ على مورثاتهم ونقلها للأجيال.

وعلى العموم يمكن القول أن: روايتي (عائلة من فخار) و (شعلة المائدة) قد كان لهما انفتاحا على التجربة الصوفية التي عدّت مرجعا ثريا لكليهما، حيث نهلتا من نبعه المتدفق الذي خلق عالما جديدا داخلهما، وكشف عن استراتيجية الروائي وإدراكه لخبايا التصوف وأبعاده ودلالاته.

4. الاحالات:

- 1- الشخصية الصوفية في آداب الطاهر وطار (رواية الولي الطاهر) نموذجاً، آسيا محمد وداعة الله، (2014م)، مجلة العلوم الإنسانية والاقتصادية، كلية اللغات، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، مج15، ع2، ص188.
- 2- موسوعة النظريات الأدبية، نبيل راغب، (2003) الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط2، ص40.
- 3- العبارة الصوفية في الشعر العربي، سهير حسانين، (2000م)، دار شرقيات، القاهرة، مصر، ط1، ص379.
- 4- الخطاب الصوفي وآليات التأويل، عبد الحميد هيمة، (2014)، دار الأمير خالد، قسنطينة، (د.ط)، ص135.
- 5- المرجع نفسه، ص144، 145.
- 6- الخطاب الصوفي وآليات التأويل، عبد الحميد هيمة، ص216.
- 7- الشعر الصوفي، عدنان حسين العوادي، (1986)، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، (د.ط)، ص163.
- 8- اللُّمع في التصوف، أبو نصر عبد الله بن علي سراج الطوسي، (1914)، مطبعة بريل، ليدن، (د.ط)، ص42.
- معراج الشوق إلى حقائق التصوف، عبد الله أحمد بن عجيبة الحسني، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ص27.
- 9- التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي، (1994)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، ص64.
- 10- اللُّمع في التصوف، أبو نصر عبد الله بن علي سراج الطوسي، ص44.
- 11- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح (2013م)، دار أيدكوم للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، ص444.
- 12- معراج التَّشَوُّق إلى حقائق التصوف، عبد الله أحمد بن عجيبة، ص27.
- 13- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص469، 470.
- 14- المصدر نفسه، ص445.
- 15- المصدر نفسه، ص444، 445.
- 16- معراج التَّشَوُّق إلى حقائق التصوف، عبد الله أحمد بن عجيبة، ص29.
- 17- اللُّمع في التصوف، أبو نصر عبد الله بن علي سراج الطوسي، ص45.
- 18- المصدر نفسه، ص46.
- 19- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص451.

- ²¹-المصدر نفسه، ص 528.
- ²²-المصدر نفسه، ص 451.
- ²³- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، (1985)، مكتبة لبنان، بيروت، (د.ط)، ص 60.
- ²⁴-معراج التشوق إلى حقائق التصوف، عبد الله أحمد بن عجيبة، ص 30.
- ²⁵- اللُّمع في التصوف، أبو نصر عبد الله بن علي سراج الطوسي، ص 46.
- ²⁶- آل عمران/ 14.
- ²⁷- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص 451.
- ²⁸- المصدر نفسه، ص 491، 492.
- ²⁹-المصدر نفسه، ص 492.
- ³⁰-الانفطار/ 19.
- ³¹- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص 451.
- ³²-معراج التشوق إلى حقائق التصوف، عبد الله أحمد بن عجيبة، ص 30.
- ³³- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص 471.
- ³⁴-المصدر نفسه، ص 525.
- ³⁵- معراج التشوق إلى حقائق التصوف، عبد الله أحمد بن عجيبة، ص 30.
- ³⁶- المصدر نفسه ، والصفحة نفسها.
- ³⁷-شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص 545.
- ³⁸- الشعر الصوفي، عدنان حسين العوادي، ص 27.
- ³⁹-اللُّمع في التصوف، أبو نصر عبد الله بن علي سراج الطوسي، ص 42.
- ⁴⁰- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص 545.
- ⁴¹- اللُّمع في التصوف، أبو نصر عبد الله بن علي سراج الطوسي، ص 47، 48.
- ⁴²- معراج التشوق إلى حقائق التصوف، عبد الله أحمد بن عجيبة، ص 45.
- ⁴³- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص 508.
- ⁴⁴-المصدر نفسه، ص 423.
- ⁴⁵-المصدر نفسه، ص 443.
- ⁴⁶- المصدر نفسه، ص 507.
- ⁴⁷- التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي، ص 74.
- ⁴⁸- المصدر نفسه، ص 74.
- ⁴⁹-الرسالة القشيرية، زين الدين أبي القاسم القشيري، دار جوامع الكلم، القاهرة، مصر، (د.ط)، ص 195.
- ⁵⁰- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص 494.
- ⁵¹-معجم ألفاظ الصوفية، حسن الشرقاوي، (1987)، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 1، ص 7.
- ⁵²-الرسالة القشيرية، زين الدين أبي القاسم القشيري، ص 64.

- ⁵³-اصطلاحات الصُوفية، عبد الرزاق الكاشاني، تح/ عبد العالي شاهين، (1992م) دار المنار، (د.ب)، ط1، ص11، 12.
- ⁵⁴- المصدر نفسه، ص12.
- ⁵⁵- المصدر نفسه، ص110.
- ⁵⁶- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص444.
- ⁵⁷- قاموس المصطلحات الصوفية، أيمن حمدي، (2000م)، دار أنباء للطباعة والنشر والتوزيع (عبد غريب)، القاهرة، (د.ط)، ص66.
- ⁵⁸- اصطلاحات الصُوفية، عبد الرزاق الكاشاني، ص172.
- ⁵⁹- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص444.
- ⁶⁰- المصدر نفسه، ص469.
- ⁶¹- ينظر: معراج التشوق إلى حقائق التصوف، عبد الله أحمد بن عجيبية، ص79.
- ⁶²- التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي، ص106.
- ⁶³- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص445.
- ⁶⁴- معراج التشوق إلى حقائق التصوف، عبد الله أحمد بن عجيبية، ص78.
- ⁶⁵- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص444.
- ⁶⁶- معراج التشوق إلى حقائق التصوف، عبد الله أحمد بن عجيبية، ص79.
- ⁶⁷- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص524.
- ⁶⁸- جامع كرامات الأولياء، يوسف بن اسماعيل النبهاني، (1991م)، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، ج1، (د.ط)، ص29.
- ⁶⁹- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، (د.ت)، دار المعرفة، بيروت، ج5، (د.ط)، ص294.
- ⁷⁰- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص525.
- ⁷¹- جامع كرامات الأولياء، يوسف بن اسماعيل النبهاني، ص36.
- ⁷²- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص507.
- ⁷³- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
- ⁷⁴- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد (ابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني)، (1908م)، المطبعة الثعالبية، الجزائر، (د.ط)، ص229، 228.
- ⁷⁵- أعلام التصوف في الجزائر "منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى"، عبد المنعم القاسمي الحسني، (2005م)، دار الخليل القاسمي، للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، ص347، 348.
- ⁷⁶- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص508.
- ⁷⁷- روضة النسرين في دولة بني مرين، أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، (1962م)، المطبعة المالكية، الرباط، (د.ط)، ص4.
- ⁷⁸- ينظر: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد، ص58.
- ⁷⁹- أعلام التصوف في الجزائر، عبد المنعم القاسمي الحسني، ص49.
- ⁸⁰- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلّاح، ص508.

- ⁸¹- أعلام التصوف في الجزائر، عبد المنعم القاسمي الحسني، ص 52.
- ⁸²- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلح، ص 508، 509.
- ⁸³- أعلام التصوف في الجزائر، عبد المنعم القاسمي الحسني، ص 51.
- ⁸⁴- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلح، ص 509.
- ⁸⁵- أعلام التصوف في الجزائر، عبد المنعم القاسمي الحسني، ص 123.
- 86- مليانة وولتها سيدي أحمد بن يوسف (دراسة خاصة بمدينة متوسطة في الجزائر)، محمد حاج صادق، (1964م)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، (د.ط)، ص 108، 109.
- ⁸⁷- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلح، ص 524.
- ⁸⁸- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد، ص 237، 238.
- ⁸⁹- معجم إعلام الجزائريين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، (1980)، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط2، ص 180.
- ⁹⁰- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد، ص 238.
- ⁹¹- أعلام التصوف في الجزائر، عبد المنعم القاسمي الحسني، ص 383.
- ⁹²- معجم إعلام الجزائريين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، ص 180.
- ⁹³- أعلام التصوف في الجزائر، عبد المنعم القاسمي الحسني، ص 385.
- ⁹⁴- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلح، ص 110.
- ⁹⁵- معجم إعلام الجزائريين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، ص 286.
- ⁹⁶- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلح، ص 68، 69.
- ⁹⁷- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، أبو عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد، ص 226.
- ⁹⁸- شعلة المائدة وقصص أخرى، محمد مفلح، ص 37.
- ⁹⁹- المصدر نفسه، ص 45.